

الشرق الأوسط الذي نعمل من أجله نحن شعوب المنطقة

أيوب بارزاني
جنيف . 17 آب 2006

مصطلح "الشرق الأوسط" هو مصطلح أوروبي غير دقيق ويعني به الأراضي الواقعة ماحول وشرق وجنوب البحر المتوسط وتمتد الى الخليج الفارسي.

حتى الحرب العالمية الثانية كان يشار الى سواحل البحر المتوسط بـ "الشرق الأدنى"، و"الشرق الأوسط" كان يعني مناطق وادي الرافدين حتى بورما، أي هي المنطقة الواقعة بين الشرق الأدنى و"الشرق الأقصى".

الكيانات السياسية الحالية هي العراق، السعودية، إيران، أفغانستان، أرمينيا، تركيا، قبرص، إسرائيل، الأردن، مصر، سوريا، لبنان، فلسطين، السودان، البحرين، الإمارات، اليمن وسلطنة عمان. وهناك من يضيف اليه دول اخرى أو يحذف منه دول. والمنطقة هي موطن ولادة الحضارات القديمة لأقوام وثقافات ولغات وأديان وأعراق مختلفة، تعيش فيه شعوب مثل العرب والأرمن والكلدوآشوريين والكردي والبربر والأذريين والفرس والتركي والدروز واليهود واليونانيين والمارونيين.

هناك من يضيف دول الشمال الأفريقي نظراً للروابط الثقافية والدينية واللغوية مع المشرق العربي، وهناك من يسقطها ويؤكد على إنتمائها الأفريقي بما فيها مصر.

مناطق آسيا المركزية التي كانت تحت النفوذ السوفيتي السابق تظهر بدرجات مختلفة إنتمائها اللغوي والديني والتاريخي بالشرق الأوسط. فالدول الجنوبية مثل تركمنستان واوزبكستان وتاجيكستان لها روابط ثقافية وتاريخية واجتماعية وسياسية مشابهة لما هو في الشرق الأوسط. بينما كازاخستان وكرخيزستان تظهران ثقافة مختلطة أقرب الى تسميتها بـ "اوروآسيوية" فقد تأثرت كثيراً بالإحتلال الروسي والسوفيتي السابق. بينما تبدي تاجيكستان حركة لإعادة الروابط الاثنية واللغوية مع إيران وأفغانستان.

في القرن الماضي، شهدت المنطقة احتلالاً عسكرياً أوروبياً واسعاً وضع نهاية للإمبراطورية العثمانية وتقسامت بريطانيا وفرنسا ممتلكاتها وخلقت دول جديدة لخدمة المصالح الاستعمارية في استغلال خيرات هذه الشعوب وسلب ثرواتها ومن أهمها النفط. ورسم الاستعمار الأوروبي حدود لدول جديدة ونصب نخب تأتمر بأوامر الأسياد في باريس ولندن وتجاهلا مطالب الشعوب في طلب العدالة والاستقلال.

إن ما خلفه المخطط الاستعماري في المنطقة من "إرث مسموم" و "قنابل موقوتة" هو الى حد كبير مسؤول لما هي عليه اليوم- منطقة الشرق الأوسط – من عنف وتوتر ودمار وحروب حصدت ملايين الأرواح ومالايحصى من المعاناة وهدر الطاقات والثروات الخيالية.

فأكثر هذه الدول تعاني من مشاكل حدودية :

- نزاع تركي- قبرصي
- نزاع تركي- يوناني
- نزاع تركي – سوري بشأن لواء الأسكندرونة وتقاسم المياه
- نزاع تركي – عراقي فيما يخص لواء الموصل والتدخل التركي في الشؤون الكردية بذريعة حماية التركمان اومطاردة قوات حزب العمال الكردستاني عبر الحدود
- نزاع تركي – أرمني بشأن الأراضي الأرمنية الواقعة ضمن تركيا الحالية وعدم اعتراف أنقرة بالمذابح الأرمنية أثناء الحرب الكونية الأولى
- سلب حق تقرير المصير من الشعب الكردي من قبل حكومات سوريا والعراق وتركيا وإيران، ودعم من الاستعمار الانكلو- فرنسي لتقسيم وطنه بين الدول المذكورة وتزويد هذه الدول بالسلاح للقضاء على إنتفاضات الشعب الكردي
- نزاع إيراني – عراقي على الحدود وتقاسم مياه شط العرب (ألوند)
- نزاع عراقي – كويتي
- نزاع مصري – سوداني بشأن الحدود والمياه

- نزاع إسرائيلي - فلسطيني
- نزاع سوري - إسرائيلي على هضبة الجولان
- نزاع سعودي - يمني على الحدود
- نزاع سعودي - قطري
- نزاع مغربي - جزائري بشأن البوليساريو
- وهناك نزاعات أخرى لأمجال هنا لذكرها.

ومن المسلم به ان التوتر والنزاعات الداخلية تسهل مهمة الدول الاستعمارية الطامعة للتدخل في شؤون هذه الدول المهزوزة . فقد حرضت وغدت الدول الأوروبية العديد من الحروب في الشرق الأوسط :

- العدوان الثلاثي على مصر 1956 بعد تاميم جمال عبدالناصر لقناة السويس
- حرب اليمن وتدخل الجيش المصري والسعودي 1962 - 1970
- الحروب التي جرت بين اسرائيل والدول العربية غزها المعسكران المتنافسان الرأسمالي والشيوعي أثناء الحرب الباردة في خمسة حروب في أعوام 1948، 1956، 1967، 1973، 1982.
- الحرب التي شنها صدام حسين على ايران (1980 - 1988)
- غزو العراق للكوييت في 2 اغسطس 1990 وماتلاها من حرب واسعة لإخراج الجيش العراقي من الكويت عام 1991 ثم الحرب الأمريكية للإطاحة بنظام صدام حسين في عام 2003
- والنزاع بين اليمنين - جنوبي - شمالي
- بين الفلسطينيين والجيش الإسرائيلي في لبنان
- بين الجيش الاسرائيلي والفلسطينيين بصورة شبه مستمرة منذ عقود من الزمن
- غزو الجيش التركي لشمال قبرص 1970 وهو عضو في الناتو
- غزو الجيش الأحمر لأفغانستان 1979
- الحرب الأهلية اللبنانية عام 1958 وفيما بعد الحرب المدمرة التي دامت من 1975 - 1989 وحيث تدخلت سوريا واسرائيل والمخابرات العراقية.
- الغارة الأمريكية الجوية ضد طرابلس وبنغازي في ليبيا عام 1986
- فرض الحصار الاقتصادي الأمريكي على إيران بعد سقوط نظام الشاه عام 1980. وضد ليبيا منذ الثمانينات وضد العراق بعد حرب الخليج الثانية ابتداءً منذ غزو العراق للكوييت عام 1990.

ثم هناك نزاعات دموية داخل بلدان الشرق الأوسط :

- حروب تحرير وطنية كردية ضد حكومات بغداد إستمرت ثمانية عقود وبشكل متواصل تقريباً، استخدمت الحكومة العراقية الغازات السامة في كردستان مرات عديدة . كما قامت بعمليات الإبادة فيما سمته الحكومة العراقية بـ "عمليات الأنفال" عام 1988 حيث يحاكم هذه الأيام صدام حسين مع عدد من أعوانه بموجبها
- هدم القرى الكردية من قبل سلطات بغداد يناهز عددها على 4000 قرية وقصبة ومدينة كردية، وتدمير البيئة الطبيعية للأهوار ونمط حياة سكانها
- ونفس المجابهات حصلت في كردستان الغربية والشمالية والجنوبية الغربية ضد حكومات أنقرة وطهران ودمشق
- حرب كردية - كردية تدخلت فيها جيوش المنطقة من جيش صدام حسين الى الجيش التركي
- الحرب الداخلية في الجزائر بعد رفض الحكومة هزيمتها في الانتخابات
- مجازر السلطات السورية ضد الاخوان المسلمين في سوريا
- مجازر نظام صدام حسين ضد الشيعة في العراق عام 1991
- الحرب الداخلية السودانية ضد الجنوبيين ومجازر دارفور
- المجابهات الدموية بين الجيش الاردني ومنظمة التحرير الفلسطينية عام 1970 وسميت بـ (أيلول الأسود)
- وفي شهر تموز من هذا العام 2006 جرت حرب ضروسة بين قوات حزب الله اللبناني والجيش الإسرائيلي وقد صدر قرار من مجلس الأمن رقم 1701 لوقف القتال.

إن دول الشرق الأوسط هي أكثر الدول خرقاً للمعاهدات والمواثيق والإتفاقات الثنائية و الدولية، فقد تنصل صدام حسين من إتفاقية 11 آذار لعام 1970 وشن هجوماً واسعاً ضد الشعب الكردي في صيف نفس العام، ومزق إتفاقية الجزائر الموقعة عام 1975 ، وشن حرباً على إيران دامت ثمانية أعوام استخدم فيها السلاح الكيماوي المحظور في كردستان وضد القوات الإيرانية، وغزا الكويت عام 1989. كما لم تحترم إتفاقيات أوسلو وكمب ديفيد بين الاسرائيليين والفلسطينيين.

الإستنتاج :

في تقرير للأمم المتحدة بشأن برنامجها التنموي نشر عام 2002 يشير الى الوضع الإرتدادي في العالم العربي: تطور اقتصادي هزيل، وتأخر في حقل التعليم والثقافة والبحث العلمي، استمرار التباين بين الجنسين، غياب الحياة الديمقراطية... الخ.

وعلى رغم توفر مصادر النفط فإن المنطقة تصنف وراء المناطق الاخرى من العالم حيث لا تتوفر فيها الثروات الطبيعية. ومنذ عام 1989 وسقوط جدار برلين يشهد العالم تقدماً ملموساً نحو المزيد من الديمقراطية والتعددية وفضاء أوسع لحرية التعبير، في حين يبدو الشرق الأوسط متحجراً داخل أطر تعود بعقود الى الوراء. لم يشهد أي تغيير في الأنظمة السياسية. فالحكام، ملوك أو رؤساء جمهوريات يحكمون حتى الموت، وبلغ بقائهم في الحكم مستوى إستثنائياً: الملك حسين بقي على العرش أكثر من 45 عاماً حافظ الأسد 30 عاماً، وحل محل الإثنين أولادهما. وان سمح بالمعارضة شكلياً، فإنها والمواطنون يواجها عمليات قمع أجهزة الأمن والمخابرات.

ماهو سبب هذا التأخر عن الركب ؟ يتفق الكثيرون من المراقبين السياسيين من ان السبب الرئيسي يعود الى الحروب الكثيرة والمستمرة. فهذه الحروب إبتلعت جميع ثروات الشعوب وطاقاتها وسهلت التدخلات الخارجية في شؤون المنطقة وأوجدت ديوناً خيالية وعسكرت الأنظمة الحاكمة وسببت آثار كارثية للبيئة.

وتمكن القادة في المجتمعات الشرق أوسطية بفضل الحروب المستديمة من السيطرة على مجتمعاتهم بإسم "الصراع المقدس" ضد العدو الخارجي . إن عدم الإستقرار هذا سهل للحكام الحصول على دعم واشنطن، فالأخيرة مهتمة قبل كل شيء بتدفق النفط الى أسواقها بأسعار زهيدة... مصادر الطاقة في المنطقة هي مبعث اهتمام الدول القوية و تدخلاتها الهدامة في شؤون المجتمعات من جهة، ومن جهة ثانية يزود النفط الحكام المستبدين بالوسائل الكفيلة للبقاء في الحكم رغم فشلهم في تحقيق التقدم الاقتصادي لمجتمعاتهم وتوفير حياة ديمقراطية تصون كرامة المواطن وحقوقه.

لكن الحروب الشرق أوسطية هي نتيجة المخطط الإستعماري الأوروبي فيدون إزالة هذا الإرث لن تزول أسباب الحروب. فالنخب الحاكمة متمسكة بهذا الإرث الإستعماري لابل تقدر الحدود المصطنعة التي فرضها الإستعمار بقوة السلاح. وهي نخب ظالمة تضطهد شعوبها الى حدود غير معروفة في تاريخ المنطقة.

إن هذه النخب السياسية الحاكمة ومن أجل البقاء في السلطة، قامت بالتدخل في حياة المواطن العادي الى حدود التجسس عليه وإخافته وإضطهاده وتجويعه أو إغرائه وإخضاعه لعملية "غسيل دماغ" تشمل المجتمع برمته. فالمتقف يستجدي السياسي الحاكم ويتملق له في سبيل العيش أو ليسلم من بطشه.

لقد عاشت شعوب الشرق الأوسط في خوف ورعب دائمين طوال القرن الماضي، وهذا ربما يفسر الخلل الواضح في سلوك المثقف الشرق أوسطي الذي يتميز بالتردد وتعدد الولاءات والتقرب من رجال السلطة والنفوذ ورواج ثقافة التملق والإطراء للحكام، إنه هش الأعصاب، مزاجه زئبقي يتحمس ويبأس بسرعة أو إنزوائي وفردوي، ينتقد ويتعنت ثم يتراجع بمدى حاسة الخوف التي تطورت لديه لتهيمن على شخصيته بحيث تزول لديه الثوابت.

نحن على قناعة بأن مجتمعات الشرق الأوسط ستبقى متعثرة ولا منجاة من المآسي والدمار الذاتي إن لم تواجه الإرث الماضي بصراحة وجرأة، والعمل على إختيار طريق آخر.

فالتخلص من الإرث الإستعماري الظالم هو أولى المهام التي يتم فيه تصالح الشعوب وفتح طريق الديمقراطية والرفاه الاقتصادي. فلن يستقيم الظل لعود أوج.

وليس من المنطق الإدعاء بمحاربة الإستعمار وفي الوقت نفسه الإبقاء على ميراثه من حدود مصطنعة وأنظمة سياسية ونخب هي نتاج مخطط الأسياد الذين صنعوا هذا الشرق المهان والممزق والمرتعب والمتسول.

ثم إن النخب السياسية الفاشلة التي توالفت خلال مايقارب القرن، سواء كانت "نخب قومية" أو "دينية" أو "إشتراكية" أو "رأسمالية" أو "عائلية" هي نخب دكتاتورية، معادية للديمقراطية، متخلفة، هدرت حقوق مواطنيها ومارست أسلوب القمع الوحشي ضد مجتمعاتها. ينبغي إستبدالها بنخب راقية تتمتع بخصائص "حضارية و قيم إنسانية رفيعة" وتعترف بحق

شعوب الشرق كافة في تقرير مصيرها . هنا نتطلع الى نخب سياسية جديدة تضع في أولوياتها المصلحة العليا والبعيدة المدى للشرق عموماً. هذا الشرق الذي سيولد من الإرادة الحرة للشعوب. إذ بدون المشاركة التامة والإرادة الحرة للشعوب سوف لن نحلّ أياً من مشاكلنا الأساسية، وعندما تقول الشعوب كلمتها عبر الإنتخابات الديمقراطية والنزيهة، ستبنى برلماناتها الحقيقية، وسوف لن نحتفظ بأسماء لصقها بنا المستعمر الأوروبي، بل سنعود الى جذورنا التاريخية وسنغير التسمية "الشرق الأوسط الجديد أو الكبير" الى "جمهوريات آسيا الجنوبية الغربية الكونفدرالية" حدود هذه الدول مشابهة لحدود الدول الأوروبية، لاجابة لجوازات سفر ونقاط السيطرة المعقدة، يكفي ان تحمل هوية شخصية للسفر في طول وعرض هذه الجمهوريات الآسيوية. عندئذ سينهض الشرق من كبوته مستغلاً الثروات الهائلة التي تعود له لنهضته الإقتصادية والإجتماعية والثقافية والصحية والعلمية والفلسفية، حيث تكون هناك دولة كردية ودولة فلسطينية وربما دول أخرى حسب إرادة شعوب المنطقة.

وفي هذه الجمهوريات ستتعاش بسلام كل الأديان، اليهودية والمسيحية والاسلام والبوذية والهندوسية والزرادشتية.

بدون هذا لن يشهد أطفال الشرق الإستقرار والرفاه والعيش الكريم.